الخاتمة

إن الطابع العلمى لفلسفة ريشنباخ قد أدى إلى نتائج بالغة الأهمية. أولى هذه النتائج هى أننا لم نعد ننظر إلى الاستقراء بوصفه منهجاً للوصول إلى الحقيقة، أننا نعلم – وفقاً لفلسفة ريشنباخ – أنه لا سبيل أمامنا للوصول إلى الحقيقة. وبدلاً من أن ننظر إلى الأحكام المتعلقة بالعالَم الفيزيائى بوصفها محاولات للاهتداء إلى الحقيقة، علينا أن ننظر إليها على أنها تجارب ستكون موضوعاً لتصحيحات لاحقة. إن منهج الاستدلال العلمى – بوصفه منهجاً تجريبياً – هو طريقة للمحاولة والخطأ. فالنتائج العلمية هى ترجيحات، أى أحكام ننظر إليها على أنها صحيحة حتى وإن لم يكن لدينا دليل على صحتها. ومن ثمَّ فإن فلسفة ريشنباخ لا تزعم أنها تملك حقيقة مطلقة، إذ إنها تتكر أن تكون للمعرفة التجريبية حقيقة من هذا النوع. وعلى قدر إشارة فلسفة ريشنباخ إلى الحالة الراهنة للمعرفة، واستخلاصها لنظرية هذه المعرفة الموجودة الآن، فإنها هى ذاتها تُعَد فلسفة تجريبية، وتقنع بالحقيقة التجريبية. فليس فى وسع الفيلسوف العلمى، شأنه شأن العالِم، إلا أن يبحث عن أفضل ترجيحاته، ولكن ذلك هو ما يستطيع أداءه وهو على استعداد لأدائه بروح المثابرة والنقد الذاتى والترحيب بالمحاولات الجديدة، التى لا غناء عنها للعمل العلمى. ولو عمل الإنسان على تصويب الخطأ كلما تكشف له بطلانه، لكان طريق الخطأ – كما يقول ريشنباخ – هو ذاته طريق الحقيقة.

النتيجة الثانية التى يؤدى إليها الطابع العلمى لفلسفة ريشنباخ هى أن صورة المنهج العلمى، كما ترسمها هذه الفلسفة، مختلفة كل الاختلاف عن المفاهيم التقليدية. فقد اختفى المثل الأعلى لعالَم يخضع مساره لقواعد دقيقة، أو لكون محدد مقدماً، يدور كما تدور الساعة المضبوطة. واختفى المثل الأعلى للعالِم الذى يعرف الحقيقة المطلقة. واتضح – وفقاً لفلسفة ريشنباخ – أن أحداث الطبيعة أشبه برمى الزهر منها بدوران النجوم فى أفلاكها، فهى خاضعة للقوانين الاحتمالية، لا للعلية. ويشبه البحث العلمى طريقة المراهنة، أى أن نتيجة البحث العلمى هى أفضل رهان يمكن أن يقوم به العالِم.

وينبغى، كما يقول ريشنباخ، ألا تنظر إلى التشبيه السابق على أنه انتقاص أو استخفاف بالمنهج العلمى. ولنقل: إن العالِم أفضل من المقامر لأن موضوعه هو المعرفة، أى الحضارة البشرية ذاتها وإذا كان العالِم يقوم بترجيحات، فهو لا يفعل ذلك لأنه عزف عن القيام بعمل نبيل، وإنما السبب فى قيامه بترجيحات هو أنه ليس أمامه سبيل آخر. ومن ثمَّ يكون من الأفضل تشبيه طريقته فى الترجيح بالطريقة التى يقوم بها المستكشف فى ترحاله عبر البحار على أمل اكتشاف شواطئ جديدة، إنه يجازف لأنه ليس أمامه سبيل أفضل لبلوغ هدفه[1]. وإذا كان المرء يعمل أفضل ما يمكنه عمله، فهل يستطيع أحد أن يطلب منه المزيد؟

إن هذه النتيجة لابد أن تبدو، بالنسبة إلى أولئك الذين اعتادت عقولهم على المذاهب الفلسفية الكبرى، وكأنها تمثل انهيارا للمعرفة، وإخفاقًا نهائياً لكل خطط العقل فى التغلب على فوضى واضطراب الحوادث الفيزيائية. فلقد قامت الفلسفة العقلية على أساس الاعتقاد بأن الذهن البشرى له طبيعة ثابتة وأنه يفرض مبادئه على الكون. غير أن التقدم الذى أحرزه علم الفيزياء أثبت بطلان هذا التصور. كما أن بنية العالَم الفيزيائى تقتضى فهم التغير الذى طرأ على المقولات التى عن طريقها يتحقق هذا الفهم. وفى مقدور علم الفيزياء السائد فى عصرنا تقديم صيغ جديدة لنظام العالَم، أى أن فى مقدوره التكيّف مع المعرفة المدهشة والمعقدة لعالَم انهارت بالنسبة له كل المقولات المعروفة، مثبتاً أن قدرات الذهن الإنسانى لا تقتصر على تلك الصيغ القديمة التى حاولت أن تقدمها الفلسفة العقلية بوصفها مقولات خالدة للمعرفة. فالعقل الإنسانى ليس إطاراً جامداً، بل هو إمكانية تنمو وتزداد بازدياد المهام الملقاة على عاتقه، وهو يشارك فى التطور الذى ينقل المعرفة من مرحلة الخيال والتأمل إلى مرحلة القوانين الرياضية التى تحكم احتمالات التنبؤ.

لقد كرس ريشنباخ جزءاً كبيراً من إنتاجه الفلسفى لبيان الأخطاء الناجمة عن الاستخدام الخالص للعقل، والاعتقاد بأنه فى استطاعة الذهن البشرى أن يستخلص من ذاته، ودون الرجوع إلى الواقع الخارجى علماً كاملاً بالكون والإنسان. والواقع أن رفض ريشنباخ للفلسفة التقليدية كان الهدف منه: رفض المذهب العقلى، ورفض الميتافيزيقا، وذلك لحساب التفكير العلمى، إيماناً بوحدانية العلم وقدرته على تزويدنا بتفسير لكل شيء وبمعرفة العلل الأولى والأخيرة[2]. ففيما يتعلق بالمذهب العقلى، يذهب ريشنباخ إلى أن

هذا المذهب كان، على الدوام، يسعى إلى اكتساب معرفة بالعموميات، أى بأعم المبادئ التى تحكم الكون. وأدى به ذلك إلى تشييد مذاهب فلسفية تتضمن فصولاً ينبغى أن نعدها اليوم محاولات ساذجة لتكوين فيزياء شاملة، أى فيزياء تقوم فيها تشبيهات بسيطة بتجارب الحياة اليومية بمهمة التفسير العلمى. وحاول أصحاب هذا المذهب تقديم تفسير لمنهج المعرفة باستخدام تشبيهات مماثلة، وأجابوا عن الأسئلة الخاصة بنظرية المعرفة باستخدام التحليل المنطقى. أما فلسفة ريشنباخ فإنها تترك للعالِم مهمة تفسير الكون بأسرها، وتبنى نظرية المعرفة عن طريق تحليل نتائج العلم. وتدرك عن وعى أنه من المستحيل فهم فيزياء الكون أو فيزياء الذرة من خلال تصورات مستمدة من الحياة اليومية.

إن معارضة ريشنباخ للمذهب العقلى قد أدت به إلى رفض المعرفة التركيبية القبلية. فالفلسفة التأملية فى سعيها إلى اليقين المطلق، رأت أن القوانين العامة المتحكمة فى جميع الحوادث يمكن استخلاصها من العقل الخالص. فالعقل، وهو مشرّع الكون، قد كشف للذهن البشرى الطبيعة الكامنة للأشياء جميعاً – ذلك رأى يكمن فى أساس المذاهب التأملية بكل صورها. أما فلسفة ريشنباخ فهى ترفض أن تقبل أية معرفة بالعالَم الفيزيائى على أنها تتصف باليقين المطلق، فليس من الممكن التعبير عن الحوادث الفردية، ولا عن القوانين التى تحكمها، بصورة مطلقة، بل المجال الوحيد الذى يمكن بلوغ اليقين فيه هو مبادئ المنطق والرياضة، غير أن هذه المبادئ تحليلية وفارغة. فيقين أى مبدأ إذن لا ينفصل عن كونه فارغاً، وبالتالى فليس ثمَّة معرفة تركيبية قبلية.

إن رفض ريشنباخ للمعرفة التركيبية القبلية – إلى جانب إيمانه العميق بالعلم – أدى به إلى نتيجة أخرى، وهى القول بنسبية المكان والزمان. فلقد حاول ريشنباخ الإجابة عن المشكلات التى كان لها دور فى الفلسفة التقليدية منذ بدايتها فى التفكير اليونانى. فهناك مشكلة أصل المعرفة الهندسية، التى كانت إجابة ريشنباخ عنها هى التمييز بين الهندسة الفيزيائية، التى هى تجريبية، وبين الهندسة الرياضية، التى هى تحليلية. هناك مسألة السببية والتحديد العام لجميع الحوادث الفيزيائية، وهى المسألة التى كانت الإجابة عنها سلبية: فالسببية قانون تجريبى، ولا يسرى إلا على موضوعات العالَم بالغ الكبر، على حين أنه ينهار فى المجال الذرى. وهناك مسألة طبيعية الجوهر والمادة، التى كانت الإجابة عنها ثنائية الموجات والجسيمات، وهو

تصور أغرب من أى نوع من الخيال تمخضت عنه المذاهب الفلسفية فى أى وقت. وهناك مسألة طبيعة المنطق، وهو المبحث الذى تبين أنه نظام لقوانين اللغة لا يرتبط بأية تجارب ممكنة، وبالتالى لا يعبر عن أية خصائص للعالَم الفيزيائى وهناك مسألة المعرفة العلمية التى أجاب عنها ريشنباخ بنظرية فى الاحتمال والاستقراء، بمقتضاها تكون التنبؤات ترجيحات، وتكون هى أفضل الأدوات المتوافرة للتنبؤ بالمستقبل، إن كان مثل هذا التنبؤ ممكنا.

لم تعد الفلسفة – كما يقول ريشنباخ – قصة أناس حاولوا عبثاً أن "يقولوا ما لا يمكن أن يقال" بصورة مجازية أو تراكيب لفظية لها صورة منطقية وهمية. بل إن الفلسفة هى التحليل المنطقى لجميع أشكال الفكر البشرى، ومن الممكن التعبير عما تود أن تقوله بعبارات مفهومة. وليس ثمَّة شيء "لا يمكن أن يقال" يتعين عليها أن تستسلم لشروطه. بل إن الفلسفة علمية فى مناهجها، فهى تجمع النتائج التى تقبل البرهان، والتى يقبلها أولئك الذين اكتسبوا خبرة كافية فى المنطق والعلم. وإذا كانت لا تزال تنطوى على مشكلة لم تُحَل، ما زالت تثير الجدل، فهناك أمل حقيقى فى أن تُحَل فى المستقبل بالطرق نفسها التى أدت، فى حالة مشكلات أخرى، إلى حلول يشيع قبولها اليوم(٣).

كانت الفلسفة فيما مضى – إلا استثناءات قليلة جداً – تبحث عن الثابت وراء التغير، أما اليوم فقد جاءها العلم بفكر جديد، وعلى رأسه فكرة التطور، جعل هذا التغير نفسه هو طبيعة الأشياء وحقيقتها، ومن ثمَّ أقلعت عن البحث عما ليس له وجود، وطفقت تجارى العلم فى وجهته، وتوازيه فى منحاه، فتجعل التغير والتطور والسير والترقى مدار بحثها. ويمكن وصف هذا الانتقال، من مجال البحث عما هو ثابت إلى مجال النظر فيما هو متغير، بأنه انتقال من اللاهوت وما يجرى مجراه إلى العلم وما يدور مداره. فقد كان اللاهوت بغض النظر عن الظواهر المتغيرة ليبحث فيما هو ثابت وراء هذا التغير، فوراء الكون المادى المتغير إله ثابت، ووراء جسم الإنسان المتغير روح ثابت، ووراء أى شيء مادى متغير عنصر ثابت وهكذا. وكانت هذه "الثوابت" أعلى منزلة من ظواهرها المتغيرات، بل كثيراً ما انتهى الأمر بالفلاسفة إلى إنكار وجود هذه المتغيرات إنكاراً يبطل وجودها، حتى لا يتصف بالوجود إلا ما هو حق مطلق لا يتغير مع تغير المكان والزمان(٤).

إن العلم – وهذه حقيقة لا شك فيها – يميز العصر الحديث عن غيره من العصور، كما كان الدين يميز العصور الوسطى تمييزاً لا شك فيه أيضاً. وإذا كانت السيادة للعلم فى عصرنا، فما الحاجة إلى الميتافيزيقا فى هذا العصر، عصر العلم؟ إن هذا السؤال يتضمن الشك فى إمكان قيام الميتافيزيقا جملة[٥]. إن كلمة "الميتافيزيقا" يمكن أن تُفهم بمعنيين، المعنى الخاص وهو العلم الإلهى، والمعنى العام وهو دراسة الوجود بما هو موجود[٦]. فالميتافيزيقا تُعرف عند المتحمسين لها بأنها مذهب الحقائق العالية. وهنا تُفهم "الحقيقة العالية" على أنها حقيقة تكمن فيما وراء الطبيعة، حقيقة تفارق وتجاوز الطبيعة. وعلى هذا، فالميتافيزيقا بهذا المعنى لابد أن تهتم بالحقيقة العليا، أى تتخذ من الله موضوعاً لبحثها، ذلك لأن الله هو الموجود المفارق الذى يجاوز الطبيعة. لكن هناك تعريفاً آخر مختلفاً وممكناً للميتافيزيقا، وهذا التعريف الآخر المختلف للميتافيزيقا هو فى الحقيقة أكثر ملاءمة لتاريخ الفكر، هو التعريف الذى ينظر إلى الميتافيزيقا من حيث هى إثارة للسؤال: "ما الوجود؟" أى أن الميتافيزيقا تُعْرَف ابتداء من وضع السؤال، ومن ثمَّ فكل إجابة ممكنة عن هذا السؤال تُؤْخَذ على أنها ميتافيزيقا[٧].

والواقع أن ريشنباخ يرفض الميتافيزيقا بكل أشكالها، ففى بحثه عن أصل الكون يرى ريشنباخ أن السؤال عن كيفية تولد المادة من لا شىء، أو البحث عن علة أولى، بمعنى علة الحادث الأول أو الكون فى مجموعه، ليس سؤالاً ذا معنى. فالعلم قد تتبع تاريخ الكون إلى وقت يرجع إلى الوراء ألفى مليون سنة. فما الذى كان هناك قبل هذا التاريخ؟ وهل يحق لنا أن نتساءل عن كيفية ظهور الكرة الغازية الأولى إلى الوجود؟ لقد أجاب الفلاسفة التأمليون على هذا السؤال بابتداع مذهب فى نشأة الكون كان يضع الخيال محل العلم، أو يفترض فعلاً للخلق من لا شيء، وهى إجابة لا تعدو – فى نظر ريشنباخ – أن تكون تعبيراً عن الجهل بالموضوع، مختبئاً خلف قناع لا يصعب استشفاف ما وراءه. أما إذا أمضينا أبعد من ذلك، وبنينا هذه الإجابة على أساس أننا سنظل إلى الأبد جاهلين، فإننا نكون بذلك قد نسبنا إلى أنفسنا – متنكرين فى ثياب التواضع – قدرة كاملة على استباق التطورات العلمية المقبلة. ويرى ريشنباخ إن الإجابة الحقيقية عن أصل الكون لابد أن نتركها للعلم، فهو وحده الذى يمكنه أن يقدم هذه الإجابة فى يوم ما[٨].

من الحجج الأثيرة لدى الفلسفات المضادة للعلم، القول أن التفسير ينبغى أن يتوقف عند نقطة ما، وأنه ستظل هناك أسئلة لا إجابة لها، غير أن الأسئلة التى يقصدونها عندئذ إنما هى – فى رأى ريشنباخ – أسئلة تكونت نتيجة لسوء استخدام الألفاظ. فالألفاظ التى يكون لها معنى فى تجمع معين قد لا يكون لها معنى فى تجمع آخر[٩]. فهل يمكن أن يكون ثمَّة أب لم يكن له ابن أبداً؟ إن كل شخص لابد أن يسخر من الفيلسوف الذى يرى فى هذا السؤال مشكلة جدية. ومع ذلك فإن السؤال عن سبب الحادث الأول، أى سبب الكون فى مجموعه، ليس – فى رأى ريشنباخ – أفضل من ذلك. فكلمة "سبب" تعبر عن علاقة بين شيئين، وهى لا تعود منطبقة عندما يكون الكلام منصباً على شيء واحد، وعلى ذلك فليس للكون فى مجموعه سبب لأنه لا يوجد، حسب التعريف، شيء خارجه يمكن أن يكون سببا له والواقع أن هذا النوع من الأسئلة إنما هو – كما يؤكد ريشنباخ – مجرد لغو لفظى وليس مناقشة فلسفية[١٠].

يرى ريشنباخ أن استبعاد الأسئلة التى لا معنى لها فى مجال الفلسفة أمر عسير، لأن هناك نوعاً معيناً من العقلية يسعى إلى البحث عن أسئلة لا يمكن الإجابة عنها، على أن الرغبة فى إثبات أن للعلم قدرة محدودة، وأن أسسه النهائية تعتمد على نوع من الإيمان لا على المعرفة هى رغبة يمكن تفسيرها على أساس علم النفس والتربية، ولكنها لا تجد تأييداً من المنطق. فهناك – كما يقول ريشنباخ – علماء يشعرون بالفخر عندما تنتهى محاضراتهم عن التطور بدليل مزعوم على أنه ستبقى هناك أسئلة يعجز العالِم عن الإجابة عنها. وكثيراً ما يستشهد الناس بآراء العلماء بوصفها دليلاً على عدم كفاية الفلسفة العلمية. ومع ذلك فكل ما تثبته هذه الآراء هو أن الإعداد العلمى لا يكفى فى كل حين لإكساب العالِم القدرة على مقاومة إغراء تلك الفلسفة التى تدعو إلى الاستسلام لنوع من الإيمان. أما من كانت الحقيقة ضالته المنشودة فعليه ألا يستسلم لتخدير الاعتقادات المسلم بها، حتى لا تهدأ فى نفسه ثورة البحث. ذلك لأن العلم – كما يؤكد ريشنباخ – سيد نفسه، وهو لا يعترف بسلطة تخرج عن حدوده[١١].

هذا هو موقف ريشنباخ الرافض للميتافيزيقا، فهو يستبعد الميتافيزيقا باسم العلم، ويقف إلى جانب المعرفة العلمية على حساب المعرفة الميتافيزيقية ومع ذلك

فإننا من جانبنا لا نستطيع أن نفاضل بين هذين النوعين من المعرفة، فكل واحدة لها مجالها الخاص، وموضوعها ومنهجها. إن السؤال الميتافيزيقى يختلف عن السؤال العلمى، ولذلك تختلف الإجابة فى كلا العلمين، فالسؤال العلمى يتعلق بموضوع ما من موضوعات المعرفة. أما السؤال الميتافيزيقى فهو يشمل الذات والموضوع معاً. فالذات التى تتساءل فى الميتافيزيقا هى الذات التى تتساءل عن ذاتها ومصيرها فى هذا العالَم. لذلك فمن العسير أن نجد الإجابة الميتافيزيقية مقنعة ومرضية مثل الإجابة العلمية، وليس غريباً أن تثير هذه الإجابة فينا القلق أكثر من الرضا. ويعتقد بعض الفلاسفة أن هذه الإجابة لا تخرج عن السؤال نفسه، أى أنها ليست إجابة بالمعنى التقليدى المعروف، أى إجابة تجعلنا نكف عن التفكير والسؤال والبحث، ولكنها إجابة تفتح أمامنا مجال التفكير من جديد(١٢).

وعلى هذا، فليس ثمَّة اعتراضات نهائية حقيقة يمكن أن تثار ضد الميتافيزيقا بالمعنى الواسع. وسيكون للميتافيزيقا دائماً طابع شكى إشكالى، أى يستثير دوماً الشك والتساؤل. وبهذا المعنى يبدو أن كلمات أرسطو تصدق على كل ميتافيزيقا، إن السؤال الذى أثير منذ القدم، ولا يزال يثار الآن ودائماً، والذى هو دائماً أبدا موضع شك، هو السؤال: ما الوجود؟(١٣).

إن الهدف من استبقاء الميتافيزيقا هو الإنسان – هذا الموجود الذى يسأل "سؤال الوجود" – هو حفظ وجوده والحيلولة دون استلابه واغترابه. إن من يستبعد الميتافيزيقا هو – فى الحقيقة – يرد الإنسان إلى مستوى واحد من مستويات الواقع، ألا وهو مستوى الموضوعية. بيد أننا لو رجعنا إلى تجربتنا الذاتية الخاصة، لتبينا أن لدينا تجارب عديدة يصعب إرجاعها وردها إلى هذا البعد الموضوعى، كما هو الحال مثلاً بالنسبة إلى تجربتى الحب والحرية. ومن هنا نستطيع أن نقول: إننا عندما نستبعد الميتافيزيقا – سواء باسم العلم أو الإنسان – فكأننا نستبعد من الإنسان ماهيته، أى قدرته على التجاوز والعلو(١٤).

هوامش تتعلق بالخاتمة

(1) H. Reichenbach, Philosophy and Physics, P. 12.

(٢) د. محمود رجب، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٣٢.

(٣) ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية، ص ٢٦٨.

(٤) د. زكى نجيب محمود، حياة الفكر فى العالم الجديد، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٢، ص ص ١١٣-٤.

(٥) د. محمود رجب، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، ص ٢٣٢.

(٦) د. نازلى إسماعيل حسين، الميتافيزيقا والبحث عن الوجود، مكتبة سيد عبد الله وهبه، القاهرة ١٩٨٥، ص ٦٢.

(٧) د. محمود رجب، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، ص ٣١٩.

(٨) ريشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية، ص ص ١٨٣-٤.

(٩) المرجع السابق، ص ١٨٤.

(١٠) المرجع السابق، ص ١٨٥.

(١١) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(١٢) د. نازلى إسماعيل حسين، الميتافيزيقا والبحث عن الوجود، ص ٦٥.

(١٣) د. محمود رجب، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، ص ٣٢٢.

(١٤) المرجع السابق، ص ٣٢٣.

obeikan.com